بين منظومتي الساقي (ساقى نامه) عند حافظ الشيرازي وخليل الله خليلي

أ.د. محمّد نور الدين عبد المنعم(*)

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٣/٢/١٣
تاريخ القبول: ٢٠٢٣/٣/٢٠

الملخّص:

منظومة الساقي أو «ساقى نامه» نوع من الشعر المثنوي على البحر المتقارب، يخاطب فيه الشاعر الساقي ويذكر مضامينَ في ذكر الموت وبيان عدم ثبات الحياة الدنيويّة وتقلّبها والنصيحة والحكمة وغير ذلك. كما أنّ هذا النوع من الشعر يختلف اختلافًا واضحًا عن المضامين العاديّة في سائر الشعر الخمريّ نظراً إلى الروح الفلسفيّة والأخلاقيّة والعرفانيّة الخاصّة التي تتمتّع بها هذه المنظومات، ويعدُّ نظامي الـگنجوي أوّلَ من نظم هذا النوع من المنظومات؛ إلّا أنّ منظومته لم تكن مستقلّة بل هي أبيات متفرّقة وردت ضمن منظوماته الخمس. والحقيقة أنّ «ساقى نامه» هي وليدة الخمريّات العربيّة التي بدأت في الأدب العربيّ ثمّ في الشعر الفارسيّ بعد ذلك. نظم حافظ الشيـــرازيّ (المتوفّى في العام ٧٩١هـ) «ساقى نامه» وقلّده كثير مـــن الشعراء بعده، ومن هؤلاء الشاعر الأفغانيّ المعاصر خليل الله خليلي (١٩٠٧ – ١٩٨٧م)، وهو

(*) أستاذ اللغة الفارسيّة وآدابها بكليّة اللغات والترجمة، جامعة الأزهر، مصر. m_nour_5@hotmail.Com

من أبرز الشعراء الأفغان، وقد عالج في منظومته عن الساقي كثيراً من الموضوعات الخاصّة بالساقي والخمر، ولا شكّ في أنّه تأثر بمنظومة حافظ الشيرازيّ.

الكلمات المفتاحيّة: حافظ الشيرازيّ، خليل الله خليلي، الشعر الخمريّ، ساقی نامه، الساقي

التعريف بالشاعرَين

أ- **حافظ الشيرازيّ** (٧٢٥-٧٩١هـ): هو شمس الدين محمّد بن بهاء الدين المعروف بـ «لسان الغيب» أكبر شعراء الغزل في إيران في أوائل القرن الثامن الهجريّ، ولد في شيراز وهناك حصّل العلوم المختلفة على أيدي علماء من أمثال قوام الدين عبد الله، واطّلع على دواوين الشعراء العرب، ولمّا كان حافظًا للقرآن الكريم لُقّبَ بلقب «حافظ». التحق حافظ في شبابه بالعمل في ديوان بلاط ملوك إينجو وآل المظفر، ونال حظوةً عند أبي إسحاق إينجو الذي كان يحكم فارس، ومدحَه. قضى حافظ معظم حياته في شيراز وسافر في رحلات قصيرة إلى إصفهان ويزد. وتوفّي في مسقط رأسه العام ٧٩١هـ.

يشتمل ديوان حافظ على غزليات ومنظومة «ساقی نامه» وعدّة قصائد، وقد خلط حافظ في شعره بين مضامين العشق والمعاني الصوفية، وبلغ في ذلك منزلة عظيمة. ويشتهر ديوان حافظ عند أهل اللغة الفارسية أكثر من دواوين غيره من شعراء الغزل، ولهذا يعدّ حافظ من أكثر شعراء إيران انتشارًا، وقد طُبع ديوانه عدّة طبعات كما تُرجمت أشعارُه بلغات عديدة.

ب- **خليل الله خليلي** (١٩٠٧-١٩٨٧م): هو شاعر وأديب ومؤرخ وأكاديميّ ودبلوماسيّ أفغانيّ، وهو الشاعر الأفغاني الأبرز في القرن العشرين. ويعدُّ آخر كبار شعراء الفارسيّة الكلاسيكيّين، وواحدًا من أوائل من قدّموا الشعر الحديث في أفغانستان، والذي يعرف بأسلوب «نيما» الشاعر الإيراني المعروف، ورائد الشعر الفارسي الحديث في إيران. وقد نشر ديوانه في إيران نظرًا لوجود معجبين كثيرين بشعره هناك. عُيِّن خليلي وزيرًا

للثقافة والإعلام، ومارسَ التدريس أيضًا في جامعة كابول، ثم أصبح مستشارًا للملك محمّد ظاهر شاه وكان مقرّبًا منه، كما عمل في حقبةِ الستينيّات والسبعينيّات سفيرًا لبلاده في السعوديّة والعراق.

عقب انقلاب إبريل ١٩٧٨ الشيوعيّ، لجأ خليلي إلى ألمانيا ثمّ إلى الولايات المتحدة، وهناك كتب الكثير من أقوى قصائده عن الحرب في وطنه الأم. وفي أواخر الثمانينيّات انتقل إلى العاصمة الباكستانيّة إسلام آباد حيث قضى باقي سنوات حياته. توفّي خليلي في العام ١٩٨٧ ودُفنَ في بيشاور، وفي العام ٢٠١٦م نُقل رفاتُه إلى أفغانستان ودُفنَ في حرم جامعة كابول إلى جوار ضريح جمال الدين الأفغانيّ.

ويُعدّ خليلُ الله خليلي كاتبًا غزيرَ الإنتاج، حيث أنتج كثيرًا من الأعمال التي بلغ عددها ٦٢ عملًا بين الشعر والرواية والتاريخ والسيرة الذاتيّة، ومن أعماله الشهيرة عمله «دموع ودماء» الذي كتبه خلال الاحتلال السوفياتي لأفغانستان، وكتاب «بطل خراسان».

الساقي والساقينامه

يقال في اللغة العربية: سقى الحيوان أو النبات سقيًا: أرواه. ويقال: سقاه غيثًا: أنزله عليه. فهو ساقٍ، والساقي هو من يقدّم الشراب وجمعه سقاة. والساقي في اللغة الفارسيّة يعني أيضًا من يقدّم الشراب أو الخمر للشاربين، وعادة ما يكون من الغلمان الذين يتمتعون بقدر كبير من الجمال، وكان عملُهم من الأعمال المُهمّة في بلاط السلاطين، وخاصّة مَن يقدّم منهم الشراب للملك أو السلطان، وكان من السائد ألا توضع كؤوس الشراب أمام الشاربين بل يطوف بها السقاة عليهم ويناولونهم إيّاها. وكان للسقاة من الرجال أو الغلمان في بلاط السلطان رئيس يرأسهم. وقد ذكر الشعراء هذا المصطلح كثيرًا في أشعارهم ومن أوائل من ذكروا كلمة الساقي الشاعر الرودكي (المتوفّى ٣٢٩هـ) حيث يقول في أحد أبيات شعره:

ای بلبل خوش آوا آوا ده ای ساقی آن قدح را به ما ده

أي: أيّها البلبل عذب الصوت غرِّد، ويا أيّها الساقي ناولنا ذلك القدح.

ويقول الفردوسي (المتوفّى في العام ٤١١ أو ٤١٦هـ):

بـــده ســاقـيـا جـــام گـيـتـى نما كـه او عـيـب مـا را نمـايـد بما

أي: أيّها الساقي ناولني الكأس الذي يكشف الدنيا ويظهرها/ وهو الذي يُظهر لنا عيوبَنا .

ويقول منوچهرى الدامغانيّ (المتوفّى في العام ٤٣٢هـ):

بلبل چغانه بشكند ساقى چمانه پركند مرغ آشيانه بيفكندواندرشوددرزاويه زاويه

أي: يحطم البلبل آلته الموسيقيّة ويملأ الساقي الكأس/ ويسقط الطائر عشّه وينزوي في زاوية.

ويعني الساقي في مصطلحات الصوفية من يوصل الفيض ويعمّر قلوب المتصوفة من طريق كشف الرموز وبيان الحقائق. كما يعني أيضًا الشيخ الكامل والمرشد المكمَّل. كما أنّ الساقي هو أيضًا صفةٌ من صفات الحقّ تعالى، لأنّه يقدّم شراب العشق والمحبّة لعاشقيه.

منظومة الساقي هي نوع من الشعر المثنوي على البحر المتقارب يخاطب فيه الشاعر الساقي ويذكر مضامينَ في ذكر الموت وبيان عدم ثبات الحياة الدنيويّة وتقلّبها والنصيحة والحكمة وغير ذلك. ومع أنّ هذا النوع من الشعر يُنسب إلى سائر الأشعار الخمريّة نظرًا لذكره الخمر والكأس، إلّا أنه يظل نوعًا خاصًّا بين الشعر الفارسيّ بسبب أنّ المفترض فيه أن يكون مثنويًّا وعلى البحر المتقارب .. كما أنّ مضامين هذا النوع من الشعر تختلف اختلافًا واضحًا عن المضامين العاديّة في سائر الشعر الخمري نظرًا إلى الروح الفلسفيّة والأخلاقيّة والعرفانيّة الخاصّة التي تتمتّع بها هذه المنظومات.

ألّف ملا عبد النبي فخر الزمان القزوينيّ المتوفّى في العام ١٠٣٧هـ تذكرةً بعنوان «ميخانه» وفيها تناول حياة ستة وأربعين من الشعراء الذين نظموا «ساقى نامه» كما ذكر نصوص منظوماتهم. وقد عدَّ نظامي الگنجوى أوّلَ من نظم هذا النوع من المنظومات، كما عدَّ خسرو الدهلوي ثاني من نظم هذا النوع. ولكن من الواجب أن

نذكر أنّ ساقي نامه الخاصّة بهذين الشاعرين لم تكن منظومات مستقلّة بل هي أبيات متفرّقة وردت ضمن خمستهم. ويعدّ سلمان الساوجي المتوفّى في العام ٧٧٨ه ومن بعده حافظ أوّل من نظما منظومات مستقلّة من هذا النوع.

أصبحت ساقي نامه من المنظومات الشعريّة المتداولة بعد حافظ. وقد أنشد الشعراء مثنويّات كثيرة عرفانيّة مستقلّة، استخدموا فيها مصطلحات خمريّة بمعان عرفانيّة. وقد ورد في كتاب «الذريعة» مئة وخمس وعشرون منظومة «ساقي نامه» جاء بعضها في قالب الترجيع بند أو التركيب بند.

يعدُّ نظم مثل هذه المنظومات في الشعر الفارسيّ من المسائل التي اهتمّ بها كبار الشعراء القدامى، ومن الأفضل أن نقول تضمين مثنوياتهم التي نظموها في البحر المتقارب أبياتًا في هذا الموضوع. والحقيقة أنّ «ساقی نامه» هي وليدة الخمريّات التي بدأت في الأدب العربيّ ثمّ في الشعر الفارسيّ بعد ذلك منذ عهد الرودكي السمرقنديّ وبشّار المرغزي (القرن الرابع الهجريّ) في قصائدهم التي وصفوا فيها الخمر، وكذلك منوچهري (المتوفّى في العام ٤٣٢هـ) في قصائده ومسمطاته البديعة حول هذا الموضوع، ثمّ وجدت طريقها بعد ذلك إلى الشعر الصوفيّ تبعًا لأذواق الشعراء الآخرين في الخانقاهات، وتضمّنت معاني جديدة وحقائق سامية.

إلّا أنّ الساقي نامه الحقيقيّة هي غالبًا وليدة الأبيات المتناثرة والمتفرّقة التي نظمها نظامي الگنجوي في منظومته التاريخيّة أو البطوليّة التاريخيّة «اسكندر نامه» في بداية أو نهاية القصص والمباحث وبيّن فيها المعاني الساميةَ التي تتناول الانقطاع عن الماديّات وبيان عدم وفاء الدنيا الفانية وغدرها والعاقبة المؤلمة لحياة بني البشر القصيرة وغير المفيدة والحكم والمواعظ بلغته الساحرة والعذبة. صحيح أنّ نظامي لم ينظم ساقی نامه أو مغنی نامه مستقلّة إلّا أنّه يضع أساس هذا الشعر في منظوماته التاريخيّة والبطوليّة بأسلوب خاصّ.

لم ينظم نظامي «ساقی نامه» أو «مغنی نامه» مستقلّة إلّا أنّ بالإمكان استخراج منظومة بديعة منفصلة تتضمّن معاني سامية جدًا من كلّ الأبيات المتناثرة في منظومته

«اسكندر نامه» يصل عدد أبياتها إلى مائتي بيت. وقد قام بهذا العمل ملا عبد النبي فخر الزمان القزوينيّ (القرن الحادي عشر الهجريّ) بذوق كبير، وهكذا ظهرت لأوّل مرّة منظومة مستقلّة لساقي نامه لنظامي جاءت في تذكرة «ميخانه» كما ذكرنا من قبل.

وواضح أنّ مقلّدي نظامي الذين ساروا على نهجه منذ القرن السابع وما تلاه لم يغفلوا عن تقليده في هذا المضمار، إلّا أنّ أحد الشعراء في ذلك العصر على خلاف الآخرين خطا خطوة في طريق الابتكار والتجديد وكان صوفيًا متحمّسًا وشاعرًا فحلًا يدعى فخر الدين العراقي نظم «ترجيع بند» مطلعه:

در ميكده مى كشم سبوى باشد كه بيايم از تو بويى

أي: إنّني أفرغ في الحانة إناء الخمر الفخّاريّ، لعلّي أشمّ رائحتك وعبيرك.

وكان مخاطبه غالبًا في كلّ الوحدات الساقي المتوهّج اليد وهو يعبّر عن الصوفي الحقيقيّ الذي يرى الحقيقة ويطلب من الساقي تحريره من القيود، ويناوله ذلك الكأس الذي يرى فيه العالم ويرى فيه عيانًا شمس وجه الساقي، ولهذا ضمّه فخر الزمان القزوينيّ في عداد منظومات الساقي نامه في تذكرة «ميخانه».

ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا كانت منظومات «ساقي نامه» غير المستقلّة متداولةً في الشعر الفارسيّ إلى أن ظهرت بعد ذلك في نهاية العصر التيموريّ وبداية العصر الصفويّ وبعده منظومات «ساقى نامه» مستقلّة يقال إنّها كانت على منوال ما نظمه حافظ. وفي مقدّمة ناظمي الساقى نامه الشاعر أميدي الطهرانيّ (المقتول في العام ٩٢٥هـ) الذي نظم ساقى نامه مستقلّة وتتميّز بجمال وجاذبيّة خاصّة.

أمّا عن ساقي نامه التي نظمها الشاعر حافظ الشيرازيّ ويصل عدد أبياتها إلى ١٣٩ بيتًا؛ فتبدأ بقوله:

بيا ساقى آن مى كه حال آورد كرامت فزايد كمال آورد

به من ده كه بس بيدل افتاده‌ام و زين هر دو بى حاصل افتاده‌ام

وقد ترجمها المرحوم الأستاذ الدكتور إبراهيم أمين الشواربيّ شعرًا حيث بدأها بقوله:

إليّ بكأس، سقاة الدلال بكأس الكرامة كأس الكمال

فـــإني حُـــرمـــت هـــنـــاء الـقـلـوب وأصبحت وحـدي طريد الكروب

يخاطب حافظ في هذه المنظومة الساقي ويطلب منه تقديم الشراب له، وهذا الشراب هو الذي يمحو الكروب ويجلو الهموم ويحيي القلوب، ويسأل الساقي عن الغابرين من الملوك والقدامى وأين ذهبوا، ثم يصف الخمر بأنّها تطهّر الفؤاد، وأنّه بشربها يكشف كلّ الأمور. وهو يدعو إلى عدم الغشّ والنفاق والمجاهرة بكلّ شيء، يقول:

ويـا سـاقـي أقـبـل بـكـأس مـذاب إلام الـنـفـاق وغـــشّ الـصـحـاب

إلام تـسـبِّـح تـبـغـي الـثـواب تمـــوِّه زورًا بـــرثّ الـثـيـاب

ثم يقول في موضع آخر:

خـذ الـجـام لا تخش فيه الجناح ففي الخلد خمري شراب مباح

ويتحدّث عن الدنيا الفانية ومصير الإنسان فيها فيقول:

إذا كـنـت يـومًـا مـصـيري الـعـدم ولم يبق منّـي سـوى اسـم حُطِم

فـــماذا بـكـائي بـدنـيـا الـــشرور ولم يـك لي فـيـهـا غـير الـعـبـور

وحـــرصي عليها دلـيـل الجـنـون وحـــبـــي لـــهـــا شر حـــب يـكـون

وداري مـجـاز وبـئـس المـقـام فـدعـنـي فـلا خـير فـيـهـا يـرام

وأسرع بـكـأس كـلـون العقيق لـه لـون خـدّ الحبيب الشفيق

ويصف الشواربي فلسفةَ حافظ فيقول: «فقد جعل مواضيعه في هذه الغزليات مواضيع النفس الظامئة إلى الحبّ الصادية إلى قطرة من شراب ترتوي به، المولهة بحبيب تهدأ إليه، المتطلّعة إلى فيض من وجد تحسّ فيه بمتعة اللقاء وحرارة التمني ورقّة الوصال..».

وقد انقسم الباحثون إلى فريقين، كلّ فريق يفسّر أشعار حافظ بطريقته، ففريق يفسّر أشعاره على ظاهرها ولا يلتمسون لها من المعاني الأخرى ما لا تحتمله الألفاظ والعبارات، فالخمر التي تحدّث عنها وتغنّى بها هي الخمر الأرضيّة القانية التي تلعب بالرأس، والمعشوقة من لحم ودم تمشي على قدمين، أمّا الفريق الآخر فقد فسّر هذه المعاني على أنّها غطاء تستتر دونه معان أخرى أشرف غرضًا وأروع مقصدًا، وقالوا

في ذلك إنّه صوفيّ يسلك مسلك العارفين ويستعمل مصطلحاتهم وعباراتهم، وأخذوا يفسّرون «الخمر» على أنّها الخمر الأزليّة التي يديرها «الساقي» الذي يرشدك إلى طريق الهداية فيملأ لك الكأس من تعاليمه السامية التي تدفع عنك الضلالة والغواية، كما تدفع عنك خمار الليل فتجعلك تفيق إلى معشوق جميل، والله جميل، وهو كنز مخفي، وصديق وفيّ لطفه أزلي.

وهكذا نرى أنّ موضوع منظومات الـ «ساقى نامه» إنما يتناول في الغالب الأعم الحديثَ عن الساقي الذي يقدّم الشراب الذي يمحو به هموم الدنيا وعناءها عن الإنسان، وقد يتضمّن بعض المعاني الصوفيّة التي لا يدركها إلّا من عرف مصطلحات التصوّف ودلالاتها.

عرض لمنظومة حافظ الشيرازي

يواصل حافظ حديثه مع الساقي ويستدعي في منظومته بعض ملوك إيران القدماء مثل كيخسرو وجمشيد وكاووس وغيرهم، ويتساءل أين ذهبوا أو ماذا كان مصيرهم، وأنّ هذا المصير سيكون مصير كلّ المخلوقات.

يصف الشاعر بعد ذلك الخمر ويطلق عليها اسم «كيمياء الفتوح»، وأنّها مثل كنز قارون، وأنّها تمدّ في عمر الإنسان وتطيله فيعمّر مثل نوح. ويقارن بعد ذلك بين كأس جمشيد أو ما يطلق عليه في الفارسيّة «جام جم» أو «جام جمشيد» وهو عبارة عن كأس كان جمشيد يرى فيها العالم وما يدور فيه، أو هي مرآة خياليّة تعرض أحداث العالم. ويرى الشاعر أنّ هذه الكأس تكذب ولا تقول الحقيقة، بينما إذا تناول الإنسان هذه الخمر فإنّه يطّلع على كلّ أسرار العالم. ثمّ يعود فيذكّر بمن رحلوا من ملوك إيران القدماء مثل أفراسياب الذي تهدّم قصره وإيوانه ولم يعد أحد يتذكّره. ويردّد مقولة قالها جمشيد قديمًا وهي أنّ الدنيا لا تساوي حبّة شعير.

يعود الشاعر فيصف الخمر بأنّها نار متوهّجة مضيئة، والكلّ يسعى إليها سواء أكان من عبدة النار أو من عبدة الدنيا، فالكلّ يرغب فيها ويتوق إليها لأنّها خمر العشق الإلهيّ.

يطلب الشاعر بعد ذلك من الساقي أن يناوله الخمر فمن طريقها سيصعد إلى الأفلاك ويمكنه نظم دُرّ الأسرار، لأنّ إخفاء السرّ في حالة السكر وفقدان الوعي غير ممكن، وسوف تصدر الكواكب أنغامًا من حوله، ويطلب من الساقي أن يذكره بالأغاني الخسروانيّة (الملكيّة)، فمن الخمر تهنأ كلّ المخلوقات، وفي النهاية يطلب الشاعر إلى الساقي صبّ دماء الكأس (الخمر) وإرسال بشرى للسكارى وكذلك تحيّة إلى الأحبة الذين رحلوا عن الدنيا.

وقد اعتمدت في دراسة هذه المنظومة على نسخة جيبية مطبوعة في طهران في العام ١٩٦١م ويصل عدد أبياتها إلى ٥٨ بيتًا فقط، والكتاب بعنوان «غزلهای حافظ».

عرض لمنظومة خليلي

يبدأ الشاعر منظومته بتوجيه الخطاب إلى الساقي فيقول:

بيا ساقی، ای مونس جان، بيا　　غزلخوان و مست و گل افشان بيا
شب آمد به پايان، شراب تو کو؟　　سپيده دميد، آفتاب تو کو؟
ز غم سوختم، آب حيوان کجاست؟　　چمن خشك شد، ابر نيسان کجاست؟

أي:

- تعال أيّها الساقي يا مؤنس الروح، تعال
تعال منشدًا للغزل، ثملًا، ناثرًا الورودَ والرياحين؛
- فقد اقترب الليل من نهايته، فأين خمرك؟
وانبلج نور الصباح، فأين شمسك المشرقة؟
- لقد احترقت من الأحزان، فأين ماء الحياة؟
وجفّت الخمائل والرياض، فأين هي أمطار شهر نيسان؟

يرى خليلي أنّ هذه الخمر تجدد آماله وتعيد إليه عزّته وكرامته، وأنّها تزيل الهموم وتقضي عليها، بل إنّ الخمر التي سيحملها معه إلى المجلس في الصحراء سوف يمحو بها جراح زهور الشقائق، فالخمر تأتي بالبهجة والسرور، وتُطمْئن البال والخاطر، وتريح

الجسد والروح، لأنّها تبعد شاربها عن قضايا العقل وتدخّلاته، وهي كاتمة أسرارِه ورفيقة لياليه المليئة بالأسى والحزن، وهي التي تجعل الإنسانَ يسبر غور نفسه وتضيء قلبه وتوقظ روحه، وتجعله يطير إلى عالم آخر تسمو فيه الروح، فيقول:

از آن می که سیمرغ وش پَر کشم — بـه دنـیـای دیـگـر سری بـر کشم
جـهـانی کـه بـالاسـت ز ادراك ما — گسسته اسـت پیوند از خـاك ما

أي:

- اعطني من تلك الخمر التي تجعلني أطير كالعنقاء،

وأحلق في عالم آخر،

- عالم أعلى وأسمى من إدراكنا،

عالم انقطعت صلته بأرضنا

ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى الحديث عن الكواكب التي سوف يلتقي بها في ذلك العالم السماويّ كعطارد والزهرة والمرّيخ، ويرى أنّ هذه الأفلاك أفضل من الأرض التي تنشب فيها الحروب والمعارك، وهذه سمة سكّانها، أمّا الكواكب الأخرى فإنّ أهلها منزّهون عن الحرب والقتال، ويعيشون في أمن وسلام.

ويتحدّث الشاعر عن الأحزان والهموم التي أصابت الإنسان، وأنّ الأرض لا يوجد بها سوى الأشواك والدماء والآلام، يقول:

- عجین اسـت ایـن خـاكِ آراسته — بـه خـون جـوانـانِ نـو خاسته
- به هر مشتِ خاکی، شکسته دلی است — به هر جا غباری تپد، بسملی است
- بـه بـازی اگـر بفشرد کـس گِلی — از آن مـی چکید خـون روشندلی
- در این دشت، جز خار آزار نیست — در این مهد، یك چشم بیدار نیست
- گیاهی در این مرتع شوم نیست — که پـرورده با خونِ مظلوم نیست

أي:

- هذا التراب المزين هو معجون

بدماء الشباب الفتي؛

- ففي كلّ حفنة تراب، يوجد قلب محطم؛
وفي كلّ مكان ينبض غبار ذبيح
- وإذا ضغط أحد على طينة لهوًا ولعبًا؛
فسوف تسيل منها دماء شخص ذي ضمير حي
- في هذه الصحراء، لا يوجد سوى أشواك الأذى والضرر،
وفي هذا المهد، لا توجد عين يقظة
- لا يوجد في هذا المرعى المشؤوم نبات
لا يكون ربيبًا لدم مظلوم

ثم يخاطب الشاعر الساقي ويطلب منه أن يناوله الخمر الناريّة في كأس شفافة لأنّها ستقلب قصر الأحزان رأسًا على عقب، وتجعله يتذكّر الشباب وينعم بالسرور والرضا، ويخدع نفسه كالأطفال علّه يحصل على الصبر على أذى الدنيا وآلامها، وهو يرى أنّ كل ما هو جميل إنّما هو خداع في هذه الدنيا، يقول:

بـده مـی، کـه یـاد جـوانی کنم — در ایـن شـام غـم، شـادمـانی کنم
دهم خویشتن را چو طفلان فریب — مگر یابم از رنـج گیتی شکیب
در ادراك مـا هـر چـه زیـبـا بُـوَد — چـو نـیـکی ببـیـنـی، فـریـبـا بُـوَد
سراسر فـریـب اسـت دنـیـای ما — نـه دنـیـای مـا، بـل سرا پـای ما
بـده سـاقـی، ای آفـتـاب امید — از آن می که دانـم سیه از سپید

أي:

- اعطني الخمر كي أتذكّر الشباب،
وأنعم بالسرور والرضا في مساء الغم والأحزان هذا
- وأخدع نفسي كالأطفال،
لعلي أحصل على الصبر على أذى الدنيا وآلامها
- إنّ كل ما يكون جميلًا في إدراكنا؛
عندما تراه جميلًا يكون شيئًا خادعًا

- إن دنيانا كلّها خدعة؛
لا ليست دنيانا فحسب بل كلّ ما يحيط بنا
- فاعطني أيها الساقي يا شمس الأمل
من تلك الخمر حتى أميز الأسود من الأبيض
ثم يخاطب الشاعر الساقي في نهاية منظومته فيقول:

به مستی زنم بوسه بر دست تو — شوم بیخود از نرگس مست تو
بـه عـشـق تـو سـازم جـهـانی دگـر — زمـیـنـی دگـر، آسـمانی دگـر
خوشا عشق و حرف دل افروز آن — خوشا سال وماه وشب وروز آن
فـلـك، خـلـق را بـنـد بـر پـا نهاد — مـرا بـنـد بـر طـبـع گـویـا نهاد
خوش آن بند آهن که بر پا کنند — ز بـنـدی کـه بـر آرزوهـا کنند
بـده مـی، که ایـن بند برهم زنم — بـه آزادگـی یـك نـفـس دم زنـم

أي:
- دعني أقبّل يديك أيها الساقي بشغف،
وأفقد الوعي بتأثير عينيك الناعستين
- وأصنع بعشقك عالمًا آخر،
وأرضا أخرى وسماء غير هذه السماء
- فما أجمل العشق وكلامه الباعث على السرور،
وطوبى لسنواته وشهوره ولياليه وأيامه
- لقد قيّد الفلك أقدام الخلق،
وقيّدنا بمهارة الفصاحة وطبعها
- ذلك القيد الحديديّ الذي يقيّدون به الأقدام،
أفضل من القيد الذي يقيّدون به الآمال والأماني
- فاعطني الخمر، حتّى أحطم هذا القيد
وأتنفّس بحريّة

لقد اعتمدت في دراسة هذه المنظومة على النصّ الموجود في كتاب «خليلی شاعر أفغان وإيران» للدكتور محمّد سياسی، ويصل عدد أبياتها إلى ٤٤ بيتًا.

الدراسة المقارنة

بعد هذا العرض الموجز للمنظومتين نلاحظ أنّ موضوعهما واحد وهو الساقي وهو في اصطلاح التصوّف الشيخ الكامل والمرشد المكمل، ويعرف الكاشاني (اصطلاحات الصوفية ص١٦٢) الشيخ بأنه: هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة، البالغ إلى حدّ التكميل فيها لعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدوائها، ومعرفته بدوائها وقدرته على شفائها والقيام بهداها إن استعدّت ووفّقت لاهتدائها.

أمّا الخمر فهي الخمر الأزليّة التي يديرها الساقي الذي يرشدك إلى طريق الهداية فيملأ لك الكأس من تعاليمه السامية التي تدفع عنك الضلالة والغواية، كما تدفع عنك خمار الليل فتجعلك تفيق إلى معشوق جميل، والله جميل، وهو كنز مخفي، وصديق وفي، لطفه أزلي. وأمّا الربيع فهو ربيع الأبرار، وأمّا الخميلة فروضة الصلحاء والأخيار، وأمّا الطير الشادي فألسنة من يسبّحون آناء الليل وأطراف النهار (انظر مقدّمة كتاب أغانی شيراز، ج١ ص٤٣). وهكذا نرى أنّ موضوع الـ «ساقی نامه» يتناول في الغالب الأعمّ الحديثَ عن الساقي الذي يقدّم الشراب الذي يمحو به هومَ الدنيا وعناءَها عن الإنسان، وقد يتضمّن بعض المعاني الصوفيّة التي لا يدركها إلّا من عرف مصطلحات التصوّف ودلالاتها.

يتحدّث الشاعران عن أنّ هذه الخمر تزيد من كرامة الإنسان وتجعله إنسانًا كاملًا، وكلاهما يستدعي من التراث التاريخيّ والأسطوريّ لبلديهما أسماءَ الملوك القدماء، ويتساءلان أين ذهب هؤلاء الملوك والعظماء وماذا كان مصيرهم، وذلك للتذكير بالمصير المحتوم لكلّ المخلوقات مهما علا شأنها وزادت عظمتها. وربّما يوحي لنا هذا بأنّ خليل الله خليلي قد اطّلع على أشعار حافظ وتأثّر بها في شعره، ونهج نهجه في نظم مثل هذه المنظومة، وهذا أمر لا شكّ فيه.

الشاعران يصفان الخمر بصفات عديدة وتتشابه هذه الصفات مع بعضها البعض؛ فمثلًا نجد حافظ يصفها بأنّها تزيد الحياة بهجة وسرورًا، وتعيد الحياة للقلوب الميتة، وتكشف كلّ الأمور، وتحيى النفوس والأماني، وبها يصفو القلب والزمان، وهي تطهّر الإنسان من عيوبه، وهي راحة للروح تعيد الشباب وتسبي العقول وهي بتعبير حافظ «آتش تابناك» أو النار المشعّة المنيرة.

ويذكر الشاعران أنّ الخمر تجعل الإنسان يطير إلى عالم آخر غير الذي نعيش فيه، ويحلّق في فضاء رحب بدلًا من هذا الضيق، يقول حافظ مخاطبًا الساقي:

فـعـجّـل وجـئـنـي بـكـأسٍ منير لـعـلّي إلى الأوج يـومًـا أطـير

كما أنّ خليلي يخاطب الساقي أيضًا ويقول إنّ الخمر ستجعله يطير ويحلّق في عالم آخر كالعنقاء حيث يلتقي هناك بالكواكب والنجوم ويعيش معها في أمن وأمان بلا حروب ولا قتال، فالخمر عنده تصنع عالمًا آخر غير العالم الذي نعيش فيه والذي يشبه الصحراء التي لا تنبت غير الأشواك، وترابها المزيّن مليء بدماء الأبرياء وقلوب البائسين المحطّمة، وحتّى إن كانت فيها بعض النباتات فقد ارتوت بدماء المظلومين. ويشير الشاعران إلى الدنيا الفانية، فيصفها حافظ بأنّها لا تساوي حبّة شعير، وأنّها خادعة، وأنّ الحياة متاع يسير، يقول:

فريب جهان قصهء روشـن است ببين تا چه زايـد شب آبستن است

أي: خداع الدنيا قصّة واضحة، انظر فالليل حبلى ليس يدري من يلد

المصراع الثاني من البيت السابق مثلٌ سائر إذ يقولون في الفارسيّة: شب آبستن است تا چه زايد سحر، ويقابله في العربية المثل: الليل حبلى ليس يدري من يلد.

أمّا خليلي فيقول إنّ دنيانا كلّها خادعة، بل إنّه يضيف إلى ذلك أنّ الخداع موجود حولنا وفي كلّ مكان وزمان، وأنّ كلّ ما يراه الإنسان جميلًا إنما هو خداع.

والخمر عند حافظ تكشف للمرء كلّ الأمور وكلّ ما يدور حوله حيث يصفو قلبه ويشفّ شعوره ويرق، ويقول خليلي في هذا المعنى أيضًا إنّ الإنسان إذا ما شرب هذه الخمر فإنّه يستطيع سبر غور نفسه ومعرفة ما بها وكأنّ قلبه يضيء وينير بتأثيرها.

ويشير الشاعران إلى العقل؛ فنجد حافظ يقول:

وروع من العقل كل اتزان فعشقك كاف لبنت الحان

ويقول أيضًا:

زماني عناء لأهل العقول به العيش يصفو لكلّ جهول

أمّا خليلي فإنّه يعِدُّ العقل جاسوسًا على الإنسان وقد يدفعه أحيانًا إلى الخزي والعار بسبب وسوسته له وغمزه ولمزه، وهو رقيب عليه في كلّ تصرفاته، ومن ثمّ يرى الشاعران أنّ العشق أهمّ وأجدر من العقل.

أمّا الساقي عند الشاعرين؛ فإنه عند حافظ صبح الأماني وراحة الروح، وهو عند خليلي صبح الآمال، والتعبيران هنا قريبان من بعضهما، ممّا يؤكّد أنّ خليلي قد اطلع على منظومة حافظ وتأثّر بها. ويضيف خليلي أوصافًا أخرى للساقي حيث يصفه بأنّه كاتم الأسرار ورفيق الهموم والأحزان، وهو شمس الآمال.

أما عن السكر وما يحدث بعد شرب هذه الخمر، فإنّ حافظ يقول:

من آنم که چون جام گیرم به دست ببینم در آن آینه هر چه هست

به مستی توان درّ اسرار سفت که در بیخودی راز نتوان نهفت

أي:

أنا من إذا أمسكت بالكأس في يدي،

أرى في تلك المرآة كل ما هو كائن وموجود

فبالسُكْر يمكن نظم دُرّ الأسرار؛

ذلك لأنه لا يمكن إخفاء الأسرار في حالة فقدان الوعي.

أما خليلي فيقول قريباً من هذا المعنى مخاطبًا الساقي:

بده ساقی، ای آفتاب امید از آن می که دانم سیه از سپید

به مستی زنم بوسه بر دست تو از آن می که دانم سیه از سپید

به مستی زنم بوسه بر دست تو شوم بیخود از نرگس مست تو

به عشق تو سازم جهانی دگر زمینی دگر، آسمانی دگر

أي:

- اعطني أيّها الساقي يا شمس الأمل من تلك الخمر حتى أميز الأسود من الأبيض
- ودعني أقبّل يديك بشغف، وأفقد الوعي بتأثير عينيك الناعستين.
- وأصنع بعشقك عالمًا آخر، وأرضًا أخرى وسماء غير هذه السماء.

وهذا يعني أنّ السكر بهذه الخمر لا يعني فقدان الوعي، بل هو يعني الخروج إلى نطاق أكبر من الوعي العادي، فهو يجعل الإنسان قادرًا على التمييز بين الحسن والسيء، ويرى كلّ شيء وتنكشف أمامه كلّ الأمور، ويعرف كلّ الأسرار، ويعيش في عالم آخر مختلف عن العالم الذي كان يعيش فيه قبل حالة السُكر هذه. بل إنّ الخمر وما تفعله بالإنسان تجعله يستطيع تحطيم كلّ القيود والعيش بحريّة، كما يقول خليلي، والحريّة كما يعرفها الكاشانيّ في كتابه «اصطلاحات الصوفيّة (ص٧٩)» هي: الانطلاق عن رقّ الأغيار. وهي على مراتب حريّة العامّة: عن رقّ الشهوات، وحريّة الخاصّة: عن رقّ المرادات لفناء إرادتهم في إرادة الحقّ، وحرية خاصّة الخاصة عن رقّ الرسوم والآثار لانمحاقهم في تجلّي نور الأنوار.

مراجع البحث

- الكاشانيّ، عبد الرازق، (١٩٨٤م)، **اصطلاحات الصوفيّة**، دار المعارف بالقاهرة.
- الشواربي، إبراهيم أمين، (٢٠٠٥م)، **أغاني شيراز**، جزآن، طبعة المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة.
- سياسى، محمد، (١٣٨١ش)، **خليلى شاعر افغان وايران**، تهران.
- نور الدين عبد المنعم، محمّد، (١٩٨٦م)، **دراسات في الشعر الفارسيّ حتى القرن الخامس الهجري**، القاهرة.
- (١٣٤١ ش)، **غزلهاى حافظ**، تهران.
- **نظامى الگنجوى أوّل من نظم منظومةً للساقي (ساقى نامه) في الشعر الفارسيّ**، بحث منشور في مجلّة مختارات إيرانيّة، العدد ١٥٦، يوليو ٢٠١٣.